الربيع العربي والشتاء الإسلامي وقضية فلسطين

صقر ابو فخر *

لم تكــن الفكرة القومية موجودة في أدبيات الحركات الإســلامية المعــاصرة، بل إنها كانت دائماً فكرة مذمومة انطلاقاً من أن الإسلام يتخطى المجتمعات القومية إلى ما يسمى مجتمع المؤمنين. فالقومية أو الوطنية، بحســب المفكرين الإســلاميين على اختلاف اتجاهاتهم، تفرِّق، بينما الإسلام يوحِّد. ولهذا كانــت مقولة الأرض أو الوطن ضعيفة لدى الإســلاميين، والأولوية لديهم هي نشر العقيدة وتحويل المجتمع إلى الإســلام والحكم بموجب الشريعة الإسلامية. أما قضايا التحرر من الاستعمار مثلاً فكانت ترد بصورة باهتة في سياق الكلام على دول الكفر أو الدول المحاربة للإسلام. فالكاتب الإسلامي محمد قطب على ســبيل المثال كان يرفض أن تكون فلســطين قضية العرب المركزية، وكان يرى أن فلسطين واحدة من قضايا المسلمين في العالم كقضية قبرص وقضية الشيشان وقضية مسلمي كشمير... وهكذا [1]. وكشــفت مجريات «الثورات» العربية التي راحت تندلع في شــتاء سنة ٢٠١١ فصاعداً أن معدل العــداء لإسرائيل والصهيونيــة ينخفض بصورة متفاوتة عــن معدل العداء لدى الحــركات الوطنية الفلســطينية أو لدى الحــركات القومية العربية. بــل إن العلاقات مع بريطانيــا والولايات المتحدة الأميركية، وهما الدولتان اللتان صنعتا إسرائيل وما زالتا تدعمانها بقوة ضد الشعب الفلسطيني وضد حقه في الحرية والاستقلال، كانت إيجابية في معظم مراحل حقبة ما بعد النكبة، أي منذ سنة ١٩٤٨ فصاعداً، وهي اليوم أكثر من ايجابية وربما باتت عضوية في حالات كثيرة.

ومن المعروف أن الحركات الإسلامية كالإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي، لم يكن لها أي شأن يذكر في النضال الوطني الفلســطيني، ولا ســيما بعد النكبة. وكانت ذريعة الإخوان هي أن «إصلاح

* كاتب وباحث فلسطيني

الفـرد» و «بناء المجتمع الإسـلامي الصحيح» شرطـان ضروريان لإعلان الجهاد. أمـا حزب التحرير الإسـلامي فكان يرى أن الجهاد يعلنه الخليفة وحده بعد تأسـيس دولـة الخلافة. وفي الحالتين كان تحرير فلسطين مسألة مؤجلة إلى حين قيام أحوال وشروط ملائمة لن تتحقق على الأرجح، ولم تتحقق بالفعل. وبناءً على هذا التصور الهلامي استنكف الإسلاميون في فلسطين وخارج فلسطين عن المشاركة في النضال الوطني بجانبيه السياسي والفدائي، وظلوا حتى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى في سنة ١٩٨٧ يـرون أن الوقت لم يحن بعدُ لمواجهـة الاحتلال وإعلان الجهاد. لكن الانتفاضة أرغمتهم على الالتحاق بها والانتصار لها، وتعديل مسـلكهم السـياسي، ولا سـيما أن حركة الجهاد الإسلامي كانت أعلنت تأسيسـها في سنة ١٩٨٠، وبدأت عملياتها العسـكرية في سنة ١٩٨٥، وهي تجربة فلسطينية مستقلة تماماً عن الإخوان المسلمين وحزب التحرير، وجاءت ثمرة لاختبار فكري متعدد المنابع.

موقع فلسطين في الانتفاضات العربية

لا يستطيع الفلسطينيون، مهما كان انتماؤهم السياسي أو العقائدي، أن ينكروا على أشقائهم العرب سعيهم إلى الحرية، وتطلعهم إلى الديمقراطية، لأنهم، بكل بساطة، هم المعنيون، قبل جميع العرب، بالحرية: حرية شـعبهم وحرية وطنهم؛ فمن العار على مَن قَدّم آلاف الشـهداء في سبيل الحرية أن يقـف ضد طلب الحريـة في العالم العربي. لكن الأمور لا تجري اليوم على هذا النحو من البسـاطة. وبعـض المجتمعات العربية، مثل سـورية، ينجرف نحو الحرب الأهليـة المتمادية بدفعٍ من تيارات إسـلامية ثأرية أو تكفيرية، ومن جماعات كيدية أخرى. وفي هذه الحال سـتتمزق هذه المجتمعات تمزيقاً دموياً، وستتطاير الحرية فيها هباء، لأن الحرية والحروب الأهلية والنزاعات الداخلية المسلحة أمـور لا يمكـن أن تلتقي في مـكان واحد. وهذا ما شـهدناه في لبنان عندما قضـت الحرب الأهلية عـلى برنامج الإصلاح الديمقراطـي الذي صاغته الحركـة الوطنية اللبنانية آنذاك. وأكثر ما يخشـاه الفلسـطينيون هو أن ينحسر حضور القضية الفلسطينية في المجتمعات العربية جراء ما يحدث فيها من اقتتال، وجراء أولوية الاسـتيلاء على الحكم وتغليب هذه الأولوية على قضية فلسطين. والراجح أن الانتفاضـات العربية لا تمتلك حساسـية قومية واضحة نحو فلسـطين، وتكاد كلمة «فلسـطين» لا تـرد في مواقـف معظم قادة هذه الانتفاضـات إلا لماماً، وبصورة خجولـة، أو دفعاً للإحراج، أوفي سـياق الإجابة عن أسـئلة الصحافيين في شأن الموقف من إسرائيل. وعلى سـبيل المثال، فإن السفارة الإسرائيليـة في القاهرة لم تتعرض لحجر واحد طوال أيام الانتفاضة المصرية. لكن، بعد مقتل الجنود المصريين الستة في سيناء، تحركت الوطنية المصرية، وهاجمت الجموع السفارة المصرية، ورفع بعض المتظاهرين العلم الفلسـطيني. وكذلك نقل الصهيـوني الفرنسي برنار هنري ليفي عن مصطفى عبد الجليـل رئيـس المجلس الإنتقالي الليبي ذي الاتجاه الإسـلامي أنه وعده بعلاقـات وطيدة بين ليبيا

وإسرائيل حين تستتب الأمور في ليبيا. وبرنار هنري ليفي هو نفسه الذي أيد علناً قصف المدنيين في غزة في أثناء العدوان الإسرائيلي عليها في أواخر سنة ٢٠٠٨. والمفارقة أن المعارضة السورية ذات الطابع الإسلامي كانت تطلب من ليفي نفسه السعي لوقف قصف المدنيين في سورية. والمعروف أن برنار هنري ليفي كان عقد في قاعة سينما سان جيرمان في باريس لقاء لِـ «منتدى قواعد اللعبة» في ٢٠١١/٧/٤ لبحث الأوضاع في سورية، وكان في مقدم الحاضرين محمد فاروق طيفور نائب المراقب العام لحركة الإخوان المسلمين في سورية، وهو أحد الأعضاء التسعة في المكتب التنفيذي للمجلس الوطني السوري، والذي نال كثيراً من الترحيب الحار من هنري ليفي نفسه [٢]. كما كان حاضراً أيضاً عمر العظم وعهد الهندي وعبد الإله الملحم وعمار القربي وسندس سليمان وملهم الدروبي (من جماعة الإخوان المسلمين السورية)، علاوة على لمى الأتاسي وأديب الشيشكلي. ثم إن «وثيقة الأزهر» التي صدرت في تشرين الثاني ٢٠١١ لم تأتِ على ذكر فلسطين البتة.

لنتذكر أن دستور «حزب التحرير الإسلامي» الذي صدر في سنة ١٩٥٩، ويتضمن ١٨٢ مادة، لم ترد فيه كلمة فلسطين على الإطلاق. وفي الكراس التعريفي بحزب التحرير وردت كلمة «إسرائيل» مرة واحدة فقط في سياق تصنيف الدول على أساس دار الإسلام ودار الكفر، أي أنها اعتُبرت مثل الدول المحاربة الأخرى، وكذلك وردت كلمة «فلسطين» مرة واحدة أيضاً في هذا الكراس. أما كلمة «التحرير» فلا تعني تحرير فلسطين كما توهم بعض الناس استناداً إلى أن مؤسس هذا الحزب أي تقي الدين النبهاني، فلسطيني، بل تعني تحرير الأمة الإسلامية من أفكار الكفر وأنظمته وأحكامه، ومن سيطرة الدول الكافرة ونفوذها [٣]. وعلى هذا الغرار أعلن يسري حماد المتحدث باسم «حزب النور» السلفي المصري الذي يرأسه عماد عبد الغفور، في مقابلة مع إذاعة الجيش الإسرائيلي في ٢٠١١/١٢/٢١ أن حزبه سيحترم اتفاقية السلام المصرية - الإسرائيلية، وهو لا يعارض هذه الاتفاقية على الإطلاق.

إن هذه المواقف ليست غريبة أبداً عن لسان حال الجماعات الإسلامية. فراشد الغنوشي زعيم حزب النهضة الإسلامية الذي يصفه كثيرون بأنه مختلف عن التيار التقليدي الإخواني، ومجدد في قضايا الحريات والمرأة والنظام الديمقراطي، يصبح «ساداتياً» حين يتعلق الأمر بقضية فلسطين؛ فقد عقد ندوة في «معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى» شدد فيها على ضرورة التنسيق مع حلف شمال الأطلسي (الناتو)، وامتدح الموقف الأميركي من الحراك الثوري العربي، وقال: «إن حل الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي يعود إلى الفلسطينيين والإسرائيليين. أنا مهتم بتونس، فيما الآخرون مهتمون بفلسطين وليبيا» [٤]. ونفى الغنوشي وجود اي نص في الدستور التونسي الجديد يحظر إقامة علاقات مع إسرائيل. ولم يتورع الغنوشي لاحقاً عن الإدلاء بتصريح إذاعي لمراسل «صوت إسرائيل» جدعون كيتس في أثناء وجوده في المنتدى الاقتصادي الدولي في دافوس، وكان معه ابنه معاذ، مع أن هذا

الأمر يُعد نوعاً من التطبيع [٥]. وفي سياق متصل صرّح الغنوشي لمجلة «ويكلي ستاندارد» الأميركية ان الدستور التونسي الجديد لن يتضمن اي مادة ضد إسرائيل. وقال إن المذكرة التي وقعتها أحزاب وجمعيات تونسية وشخصيات سياسية ومدنية حقوقية، والتي تتضمن رفض التطبيع مع إسرائيل، هي مذكرة بلا معنى [٦]. وعلى هذا المنوال عمد برهان غليون إلى بيع أوراقه السياسية مجاناً حين تحدث إلى صحيفة «وول ستريت جورنال» فقال: «إن علاقة سورية بإيران وحزب الله وحماس لن تكون على ما هي عليه اليوم إذا وصل المجلس الوطني السوري إلى الحكم في سورية». وأضاف: إن استعادة هضبة الجولان تكون بالمفاوضات وليس عبر الصراع المسلح [٧]. وتناسى ان التفاوض، وليس غير التفاوض، هو ما كان يفعله النظام السوري، فما هو وجه الاختلاف إذاً؟

شيء من التاريخ

قدمت الثورة الفلسطينية دعماً معروفاً للثورة الأرتيرية، وما إن استقلت هذه الدولة عن الحبشة حتى بادرت إلى افتتاح سفارة لإسرائيل في عاصمتها أسمرة. وكان أول ما قامت به دولة جنوب السودان هو إقامة علاقات فورية مع إسرائيل، وزار رئيسها سيلفا كير إسرائيل قبل أن يزور الخرطوم. والرئيس العراقي جلال الطالباني الذي طالما تلقى الدعم من القادة الفلسطينيين (ومن الشهيد وديع حداد بالتحديد) لم يتورع عن التصريح بالموافقة على عودة اليهود الأكراد إلى شمال العراق. ومع أن هذا الموقف ربما يُفسر بالموقف الإنساني البسيط، إلا انه لم يطلب عودة الفلسطينيين إلى ديارهم في الوقت نفسه. وبعد سقوط نظام الرئيس صدام حسين تقاطر على إسرائيل كثير من العراقيين أمثال كنعان مكية ونجم والي وعبد القادر الجنابي ومثال الألوسي الذي صار نائباً في البرلمان العراقي، ولم يقل لهم أحد لماذا فعلتم ما فعلتم، لنتذكر أن كنعان مكية (أو «سمير الخليل» صاحب كتاب «جمهورية الخوف») قال، لمزيد من المهازل، إنه لم يرَ مشهداً أجمل ولا صوتاً ابهى من صوت القصف حين بدأت الطائرات الأميركية تلقي بحممها النارية على العراق في شباط ٢٠٠٣.

ما السر؟

من الصعب الإحاطة، على وجه الدقة، بالأسباب الجوهرية لانحسار حضور قضية فلسطين في خطاب الانتفاضات العربية. ربما لأن القضية الفلسطينية نفسها تعاني تشرذم الفلسطينيين أنفسهم، وانقسام المجتمع على نفسه، ولا سيما بعد الانقلاب الدموي في غزة في سنة ٢٠٠٦. إلا أن من الممكن وضع بعض الخطوط العامة كمحاولة أولية للإجابة عن ذلك. وفي هذا الميدان يمكن أن نرصد الظاهرة التالية: إن معدل العداء لإسرائيل والصهيونية يتفاوت كثيراً بين جماعات الإسلام السياسي في هذا البلد العربي أو ذاك. فبينما نجد في فلسطين عداء واضحاً لإسرائيل لدى المجموعات الإسلامية السياسية، نرى ان

بعض الجماعات الإسلامية في العالم العربي لها موقف فاتر من قضية فلسطين. وبناء على هذا التصور أو الاعتقاد استنكف الإسلاميون، طوال الخمسينات والستينات من القرن المنصرم، عن المشاركة في النضال الوطني الفلسطيني. والمعروف أن عدد المتطوعين الذين أرسلتهم جماعة الإخوان المسلمين إلى فلسطين في حرب ١٩٤٨، وهم من مصر وسورية والأردن وأقطار أخرى، بلغ ٤١٧ متطوعاً فقط. وهذا يُعتبر عدداً ضئيلاً لحركة فاق عدد أعضائها المليون في تلك الفترة. وبعد نكبة ١٩٤٨، برز تيار القومية العربية وتيار اليسار، لكن معظم الجماعات الإسلامية السياسية وقف مع السعودية والأردن آنذاك ضد مصر وجمال عبد الناصر. وعند إعلان قيام حركة «فتح» عارضها الإسلاميون لأنها دعت إلى تأسيس دولة ديمقراطية في فلسطين، وكذلك عارضوا منظمة التحرير الفلسطينية لأنها – بحسب دعايتهم – منظمة علمانية، ورفضوا الانضمام إليها، مع أنهم لم يجدوا حرجاً في العمل في إطار النظام الأردني والنظام المصري اللذين وقعا معاهدتي سلام مع إسرائيل، بينما منظمة التحرير الفلسطينية لم توقع مثل هذه المعاهدة حتى الآن، بل وقعت «إعلان مبادئ» (اتفاق أوسلو).

لا ريب في أن التيار الإسلامي يمتلك حضوراً قوياً في الانتفاضات العربية، وهذا ما بات واضحاً في مصر وتونس وليبيا واليمن وسورية. غير أن الواضح أيضاً إن حضور قضية فلسطين ليس قوياً في الأدبيات السياسية لهذه الانتفاضات. فهل إن وهن علاقة الإسلاميين العرب بقضية فلسطين هو السبب في ذلك؟ أم أن هناك أسباباً أبعد من ذلك؟ والجواب يحتاج إلى مزيد من التأمل.

كان يُقال إن الثورات التاريخية الكبرى كالثورة الفرنسية والثورة الروسية خطط لها العقلاء والمفكرون، وفجّرها المجانين، وقطف ثمارها الجبناء. أما اليوم، في عصر الثورات العربية الجديدة، فقد صرنا في سديم محيّر لا نعرف تماماً من يفجرها، لكننا نعرف أن كثيرين يتدافعون اليوم إلى قطف أزهار الرمان عن شجيراتها الجميلة، فيما إسرائيل تراقب ما يجري بدقة وحذر. وكلما زادت الفوضى في العالم العربي وزاد التشقق، فإن من شأن ذلك أن يعزز أمن إسرائيل القومي الذي ازداد مناعة بعد تحطيم العراق كقوة احتياط استراتيجية في سنة ٢٠٠٣، وقبل ذلك خروج مصر من الصراع العربي – الإسرائيلي منذ زيارة أنور السادات إلى القدس في سنة ١٩٧٧، الأمر الذي جعل نظرية «الكماشة العربية»، أي مصر وسورية ومعهما الأردن والعراق، تصبح غير ممكنة.

إن إسرائيل لا تخشى وصول الإسلاميين إلى السلطة في البلدان العربية، ولا تخيفها الحكومات الإسلامية قط. فها هي تركيا الإسلامية لا تشكل أي خطر جدي على إسرائيل، وكذلك المملكة العربية السعودية، وحتى حركة حماس فهي في غزة أقل إيذاءً مما كانت عليه قبل سنة ٢٠٠٧. ولهذا أجازت وزارة الخارجية الإسرائيلية للسفير الإسرائيلي في القاهرة يعقوب عميطال فتح حوار مع الإخوان

المسلمين والسلفيين. وقد جاء ذلك بناء على توصية رفعها مجلس الأمن القومي الإسرائيلي بعد استكشاف إمكانية هذا الحوار عبر أقنية سرية [٨]. لكن الإخوان المسلمين طلبوا تأجيل الحوار إلى ما بعد الانتخابات النيابية والرئاسية كي لا تتسرب تفصيلاته إلى العلن.

أمن إسرائيل أولاً وأخيراً

يعاند بعض الباحثين، ومن بينهم فلسطينيون، هذه الوقائع الصريحة والمكشوفة، ويحاولون اختراع ذرائع غير متينة لتبرير «عدم الوضوح» في مواقف الإسلاميين من قضية فلسطين كالقول إن التغيرات التي وقعت في تونس وليبيا ومصر ما زالت غير مكتملة، وإن لدى الإسلاميين الذين فازوا في الانتخابات التشريعية في هذه الدول الثلاث خوفاً من تكرار النموذج الجزائري، وإن تقوية الجبهة الداخلية وبناء عناصر القوة وتحرير الإنسان من براثن الفساد والتخلف، ومن عُقد الإذلال والتغريب والتبعية هي، بموجب فقه الأولويات، شروط سابقة لأي مشروع جاد لتحرير الأرض والمقدسات [٩]. غير أنني أعتقد ان مواقف الإسلاميين العرب الباردة من قضية فلسطين ليست أمراً جديداً، بل لها أصل في التاريخ السياسي القريب. لنتذكر نظرية دالاس التي كانت تقوم على تبني الأديان لمواجهة الشيوعية، وفي ضوء هذه النظرية دعمت الولايات المتحدة، وخصوصاً في أثناء الحرب الباردة، الأصوليات الدينية مثل الإخوان المسلمين والمجاهدين الأفغان. وحاربت بريطانيا القومية العربية بعد نكبة ١٩٤٨ بالإخوان المسلمين وحزب التحرير، فوقف «الإخوان» مع السعودية والأردن ضد جمال عبد الناصر، ووقف حزب التحرير ضد الحركة الوطنية في الأردن قبل سقوط حكومة سليمان النابلسي في سنة ١٩٥٧ وبعده. وقد كشف مارك كيرتس في كتابه «الشؤون السرية» كيف مولت بريطانيا الإخوان المسلمين في مصر لإسقاط نظام الرئيس جمال عبد الناصر، علماً أنها بدأت تمويلها جماعة الإخوان منذ سنة ١٩٤٢ فصاعداً [١٠]، تماماً مثلما مولت آية الله قاشاني مؤسس «حركة أنصار الإسلام» لمناهضة محمد مصدق في سنة ١٩٥٣. ويعترف عصام العريان، وهو أحد قادة الإخوان في مصر، بأن حسن البنا، مؤسس الجماعة، كانت له محادثات مع السفارة الأميركية في القاهرة بعد الحرب العالمية الثانية، والحجة هي محاربة الشيوعية [١١]. وقد تجددت اتصالات جماعة الإخوان المسلمين بالولايات المتحدة الأميركية في خمسينات القرن المنصرم، وبالتحديد تلك الاتصالات التي كان يجريها جيفرسون كافري (السفير الأميركي في القاهرة) بسعيد رمضان الذي زار الولايات المتحدة في سنة ١٩٥٣، وزار البيت الأبيض والتقى الرئيس إيزنهاور، وخضع لبرنامج ثقافي ضد الشيوعية كانت تموله وكالة المخابرات المركزية [١٢]. وفي أيامنا هذه، وبتأثير من روبرت مالي (يهودي مصري يدير «مجموعة الأزمات الدولية») ودنيس روس (يهودي استرالي كان منسقاً لمفاوضات السلام بين إسرائيل والعرب) دعمت الولايات المتحدة فكرة الاتصال بالإخوان المسلمين وبالجماعات الإسلامية الأخرى «المعتدلة»،

وتوصلت إلى اســتنتاج بأن من الممكن أن ينضم هؤلاء إلى المؤسســات السياســية في بلادهم، وأن في الإمكان احتواءهم في داخل السلطة بدلاً من إبقائهم خارجها. أما تقرير معهد هيودسون المقرب من البنتاغون الذي صدر في ٢٠١١/٨/١٥ ووقعه رئيس المعهد هيربرت لندن فيؤكد أن الولايات المتحدة تســعى إلى وصول الإخوان إلى السلطة في البلدان التي تشهد حركة احتجاجات واسعة، وأن الولايات المتحدة اتفقت مع الإخوان المســلمين في سورية، وبدعم من تركيا، على تسهيل وصولهم إلى الحكم. ولم تنفِ واشنطن هذه المعلومات، ولم تكذب جماعة الإخوان المسلمين ما ورد في التقرير.

ما ثمن هذه التفاهمات كلها؟ الثمن هو نفســه دائماً: عدم المســاس بأمــن إسرائيل، وعدم الاندفاع في تأييــد قضية فلســطين بما يمس الأمــن الإسرائيلي، ثم ضمان أمن النفــط. ولعل ذلك يفسر برودة الجماعات الإسلامية في مواقفها من قضية فلسطين.

الهوامش:

(١) صقر أبو فخر، الحركة الوطنية الفلسطينية»، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣.

(٢) جريدة «الأخبار» اللبنانية، ٢٠١٢/١/٥.

(٣) «حزب التحرير» (كراس تعريفي)، ١٩٨٥، د. ن.، د. م.

(٤) جريدة «السفير»، ٢٠١١/١٢/٣.

(٥) جريدة «الأخبار»، ٢٠١٢/٢/١.

(٦) المصدر السابق نفسه.

(٧) جريدة «السفير»، ٢٠١١/١٢/٣.

(٨) جريدة «معاريف»، ٢٠١٢/١/٤.

(٩) محسن صالح، «إسلاميو الثورات العربية والقضية الفلسطينية»، مجلة «الأمان» (بيروت)، ٢٠١٢/٣/٩.

(١٠) مارك كيرتس، «الشؤون السرية»، لندن: سربنت تيل، ٢٠١٠.

(١١) عصام العريان، موقع «إخوان نت»، ٢٠٠٦/٢/٣.

(١٢) ريتشارد ميتشل، «الإخوان المسلمون»، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٧٧.